# صوت المناضل في رواية نار ونور لعبد المالك مرتاض (الوعي، الرؤية، الموقف)

**الدكتورة/ أوريدة عبود**

أستاذة محاضرة قسم -أ-،

جامعة مولود معمري تيزي وزو،

abboudourida@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2018/03/03 تاريخ القبول: 2018/12/09 تاريخ النشر: 2018/12/31

**ملخص:**

يعج الواقع الاجتماعي بتعدد الأصوات، وكل صوت يرتبط بحقبة معينة وبوعي وفكر مختلفين، وبطريقة كلام خاصة في المجتمع. وينعكس ذلك في النسيج الروائي، فهذه الأصوات التاريخية والاجتماعية تسكن اللغة، وتنتظم في الرواية، في نظام أسلوبي متماسك، يعبر عن موقع المؤلف الإيديولوجي والاجتماعي. وهذا ما يجعل الرواية جنسا أدبيا مميزا تلتقي فيه جميع الأصوات وصراعها، مما يولد عدة قراءات وتأويلات لتقدير الخطاب وضبطه بحصر دلالته.

يعتبر صوت المناضل من الأصوات الرئيسة التي هيمنت على الرواية الجزائرية وتمكنت من أن تكون إطارا صالحا وعاملا فاعلا لبعض القضايا التي تهم البلاد، وأن تمثل الموقف الحضاري تجاه العصر والمجتمع. غدا صوت المناضل محورا بارزا في السرد الروائي وتحول إلى شريحة اجتماعية تحاول التعبير عن الظلم والاستغلال. فهذا الصوت يسهم في حمل مصالح الشعب ومواصلة الثورة والنضال للقضاء على الظلم والاستعباد.

**الكلمات المفتاحية:** المجتمع الصوت، الرواية، المناضل، الثورة.

**Abstract**

Social reality is full of polytheism. Each voice is connected to a particular era, consciousness and thought, and in a particular way of speaking in society. This is reflected in the narrative fabric. These historical and social voices inhabit the language, and are organized in the novel, in a coherent system of style, which expresses the author's ideological and social position. This makes the novel a distinctive literary genre in which all voices converge and struggle, which generates a number of readings and interpretations to appreciate the speech and control by limiting its significance

The voice of the fighter is one of the main voices that dominated the Algerian novel and managed to be a valid framework and an active factor for some issues of interest to the country, and to represent the civilized position towards the age

and society. The voice of the fighter has become a prominent feature of the narrative and has become a social segment trying to express injustice and exploitation. This voice contributes to the interests of the people and the continuation of the revolution and struggle to eliminate injustice and enslavement

**Key words**: society, voice, novel, fighter, revolution.

## مقدمـــة:

تقدم الرواية عالما تزدحم فيه الأصوات وتتعالق اللغات وتختلف المواقف دون أن تتحد أو تنحل في حدث ما، وإنّما تحافظ على غيريتها، وتتظاهر في لغاتها وتبعا لذلك فإنّ كلمة البطل في هذا النوع من النصوص تتمتع باستقلالية استثنائية داخل بنية العمل الأدبي.

تركز الرواية أساسا على قضايا الإنسان لهذا تمثل الأصوات الروائية مركز الأفكار ومجال المعاني، التي تدور حولها الأحداث بدونها تغدو الرواية ضربا من الدعابة المباشرة، والوصف التقريري والشعارات الجوفاء الخالية من المضمون الإنساني ،الذي يؤثر في حركة الأحداث، ولهذا فمن الضروري أن تؤكد كل الأصوات على المعاني الإنسانية والأفكار العامة ،وعلى الروائي ألا يسوق أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي فالأصوات الروائية يجب أن ينظر إليها على أنها كائنات إنسانية تتحرك في سياق الأحداث ترتبط ارتباطا مباشرا بالحياة.

بتعبير آخر ينبغي أن تكون الأصوات من صميم الواقع ومن ملابساته التي يعيشها الروائي، ولا يمكن أن يكون الصراع الدرامي داخليا فحسب ولا خارجيا تجريديا، ذلك أن الأساس في الصوت الروائي عدم إهماله الواقع وقضاياه مما يجعله يكتسب حيويته وفاعليته، الأمر الذي يجعل بحثنا يطرح هذه الإشكالية:

كيف يبرز الصوت في الرواية؟

ما معنى تعدد الأصوات في الرواية؟

هل هناك ظروف تؤثر في تكوين سلوك الصوت وتحديد أبعاده الاجتماعية في الخطاب الروائي؟

كيف تحددت معالم صوت المناضل في الخطاب الروائي الجزائري؟

## I تعدد الأصوات والوعي الاجتماعي:

يشكل الروائي أصواته من صميم الحياة والبيئة، ويمنحها حق الحياة وعليه ألا يقتصر على تصوير القوي الغريزية الغامضة والوعي الفردي المطلق، وإنما يجوز له ذلك التصوير في ظل الوعي الإنساني، ومنطق المجتمع والحياة، إذ لا وجود لوعي فردي معزول عن الضمير الإنساني بهذا يتمكن الروائي أن يصل بأصواته إلى النماذج الإنسانية الرفيعة المستوى، تكون ذات ثراء دلالي، وغنية في جوانبها النفسية والاجتماعية. فالصوت الروائي كيان فني مكثف بذاته، مادته الواقع ولكنه بعد أن تشكل في قالب روائي، فقد صلته بالواقع الخارجي لتصبح صلته رمزا لغويا يعبر عن رؤية فنية، ذلك أن الرواية على حد تعبير باختين "هي التنوع الاجتماعي للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا"[1]

يمثل الواقع عنصرا متنافرا مع الصوت وليس منسجما معه لأن التحديات الواقعية الكثيرة تعمق الرؤى وتحليها إلى مثل عليا فتزيد الأصوات الروائية قدرة على الاستقلالية ويزداد الصوت تشبثا برأيه كلما زادت الضغوطات عليه، ولعل هذا ما يفسر سبب سكون رواية متعددة الأصوات للواقع والتغذي من معطياته.

تعتمد رواية الأصوات على الاختلاف والتنافر لإبراز وجهات النظر كأساس بنائي مساعد على إنجاح مهمة الأصوات، ومن ثم فالتعددية الجوهرية لأشكال الوعي هي التي تخلق التعددية الصوتية التي ترفض الاندماج والتوحد في رؤية أحادية، وكأنها تحتفظ بكل متناقضات الواقع وحركيته وتحتفظ بمساحة من الحرية لكل صوت دون تدخل المؤلف لتوجيه الصوت نحو غاية فكرية أحادية، فكلما كانت الأصوات مختلفة في توجهاتها الفكرية وانتماءاتها الطبقية كلما ساعد إلى إظهار مساحة الحرية التي يتحرك فيها الصوت بوجهة نظره. فالرواية ذات الطابع الحواري "لا تبنى بوصفها وعيا واحدا وتاما يتقبل موضوعيا أشكا أخرى من الوعي، بل بوصفها تأثيرا متبادلا لعدد من أشكال الوعي"[2]

لكن ما ينبغي التنويه إليه هو أن تعدد الأصوات لا يعني به تعدد خصائص الشخصيات، إنما يعني أيضا تعدد أشكال الوعي داخل النص الروائي. فالصوت ينظر إليه من زاوية تعدد الوعي لديه وعدم جعل الشخصية ضميرا منغلقا، بل من الضروري أن يجعلها الروائي منفتحة، يسألها ويناقشها ويدخل معها في حوارات لا نهائية، يسمعها وينصت إلى لغتها ونبرات صوتها.

بهذا المنظور تغدو الشخصية صوتا يتمتع بالحرية والاستقلالية يستطيع أن يخالف رأي الكاتب ويشرف على بث إيديولوجيته بطرقه الخاصة، مما يسهم في التعدد اللغوي في الخطاب الروائي. وعلى هذا فإن الرواية متعددة الأصوات تتزايد أهميتها مع حاجة الإنسان إلى فضاء يضمن له حرية البوح والاعتراف والتعبير المختلف والمغاير: "فالروائي إذا فقد الأرض اللسانية لأسلوب النثر، وإذا لم يستمع إلى الثنائية الصوتية العضوية وإلى الحوار الداخلي لها، لن يحقق أبدا الإمكانات والمعضلات الحقيقية للجنس الروائي"[3]

إنّه عندما ينتقي أصواته الروائية من الواقع لا من الاستنساخ الحرفي، أي: "لإبداع نماذج متميزة وأصيلة، فهم يتصرفون فيما ينتقون، يزوقون سمة، ويشوهون أخرى يعوضون مزاجا بآخر، ويبرزون طبعا على حساب طبع، حسب الموقع الوظيفي الذي يحتله الصوت في النص"[4] إنّه هو الذي أوجد أصواته، بمعنى أنه أضفى على أصواته الروائية تميزها من سواها عن غيرها، وبذلك صنع فضاء روايته بكيفية خاصة لا تشير إلاّ إليه، ونقل الصوت عبر فضاء الكتابة إلى ذاكرة القارئ وانشغالاته، وأسس في فضاء القراءة وجهة نظر ما.

استطاع عبد المالك مرتاض أن يبرز في روايته نار ونور الحس الوطني، حيث استمد نسيج موضاعاته من حياة الشعب العامة ومشكلاته، وتناول قضايا المجتمع الجزائري ومظاهر القهر والاستغلال والضياع، فجاءت أصواته ذات ذاكرة متفردة، أيقظها الإحساس بالمسؤولية تجاه ما حدث وما يحدث. وكان صوت المناضل من الأصوات الرئيسة التي هيمنت على الرواية الجزائرية، وتمكنت من أن تكون إطارا صالحا وعاملا فاعلا لبعض القضايا التي تهم البلاد وأن تمثل الموقف الحضاري تجاه العصر والمجتمع. غدا صوت المناضل محورا بارزا في السرد الروائي وتحول إلى شريحة اجتماعية تحاول التعبير عن الظلم والاستغلال والاستعمار. فهذا الصوت يسهم في حمل مصالح الشعب ومواصلة الثورة والنضال للقضاء على الظلم والاستعباد.

## II المناضل/الرؤية السياسية:

سنواجه مع هذا الصوت سلطة من طراز خاص، وهي السلطة النضالية التي تعني الوعي السياسي الذي يتوافر عليه المناضل، فيكرسه لخدمة قضايا الشعب. وبه تتبلور

أهمية هذا الصوت وحيويته المؤثرة في ترقية المجتمع وثقافته، جاعلا هم الجماعة همه الخاص.

يستوقفنا صوت "سعيد" في رواية "نار ونور" الذي وظفه الروائي ليكون رمزا لكل جزائري، قدمته الرواية ثائرا مناضلا وفدائيا مستجيبا لروح الشعب وطموحه، وشهيدا في آخر الرواية، جسد هذا الصوت بكل المواقف البطولية الولاء والانتماء إلى الوطن، حيث ألقى مرتاض ببطله سعيد أمام المستعمر وفي خضم الأحداث منذ البداية، دون أن يمهد لذلك ببسط الخلفية الفكرية والنفسية أو ينشئ معطيات فنيه مثلا. فقد بدأت هذه الرواية بدخول سعيد الأحداث وهو بكامل وعيه بقضية الوطن والوطنية وبالمبادئ الثورية. نجده في البداية يناقش أستاذ الأدب الفرنسي في الحرب والأدب واللغة، ليكشف لنا عن ظلم المستعمر وخبثه، ومحاولاته الكثيرة لطمس الشخصية الوطنية.

وبعد المناقشة والتحدي الفكري، تأتي مرحلة التحدي المسلح، ليقرر سعيد وزملاؤه ترك مقاعد الدراسة والتفرغ للعمل الفدائي الذي انتهى بتفجير عدة قنابل، ثم تنظيم مظاهرة عارمة، أعقبتها معركة عنيفة بين جماهير "حي سيدي الهواري" وجنود الاستعمار ...وخلال هذه الأحداث كلها، كان سعيد مرتبطا بعلاقة حب عنيفة مع فاطمة ابنة خاله وصور هذا الحب في مواقف كثيرة تصويرا ارتقى به إلى الحب العذري، كما أسند إلى فاطمة دورًا مهما في تحريك الأحداث وبلورتها، نتيجة لمحاولاتها الدائمة في رفع معنويات سعيد وتشجيعه على القيام بالأعمال البطولية.

يعتبر هذا الصوت أشد التصاقا بقضايا عقائدية وتاريخيه ورثها عن أجداده وآبائه، ثم رسخت في أعماقه بحكم ثقافته والتزامه اللذين جعلاه يناقش بجرأة وحده في كل المناسبات ومع أي كان. وكان ذلك كله، قصد خدمة الهدف الثوري الذي وضعت من أجله هذه الرواية، والذي يتمثل في تجسيد أكبر قدر ممكن من الوعي لدى هذا الصوت وبالتالي لدى سكان هذا الحي: "فكل عمل ثوري يحتاج إلى رواد أو طليعة تكون أكثر وعيا لتنير السبيل أمام المواطنين من أفراد الشعب، ولا يمكن أن نتصور الشعب كله على درجة واحدة من الوعي في بداية العمل الثوري، وهذه الطليعة تبرز لتقود وتنظم نضال الشعب."[5]

يعدّ سعيد الوجه المشرق لحي سيدي الهواري، كما كان هو العنصر الذي قصد به الروائي، الحصول على توازن فني للرفع من مستوى الصراع الحضاري والعقائدي. ولعل

تركيز سعيد على التاريخ الوطني وتمجيده، دلاله قوية على مدى عمق رؤيته للبعد الوطني، الذي شارك في تكوين المد الثوري: يقول الروائي:

"سعيد يثور، ويعلو صوته:

إن الإنسان الجزائري بطبعه يحب الثورة، فإذا أضف إلى ذلك شيئان:

الشباب والثقافة، أو الشباب والوعي، فأذن بثورة أصيلة نابعة من طبيعته التي جبل عليها منذ القدم. فقد طرد الجزائريون الرومان، والوندال، والإسبان. أفتراهم عاجزين عن طرد الفرنسيين اليوم...؟ إنهم منذ وطئت أقدامهم أرضنا لم ينعموا بالراحة والهدوء، ولم يكادوا يناموا قط ملء، الجفون...

إنّ الطلاب، طلابنا كغيرهم من سائر طبقات الشعب، بل لا أرتاب في أن هؤلاء الطلاب أحسن عناصر الثورة عند الشعب، فالثورة نار وهو وقودها، والثورة شمعة وهم فتيلتها التي لا تنطفئ أبدا. الثورة عندنا لم تقم بها طائفة دون طائفة. وإنما الثورة نفحة من السماء نزلت علينا، فأنعشت قلوبنا، فاستيقظت، وانبرت للجهاد في عزم من حديد، وفي إرادة من فولاذ. لسنا نرتاب في أن الثورة أزكاها الشعب بالمعنى اللغوي، لا بالمعنى السياسي...

قاطع الخال سعيدا قائلا:

بالمعنى اللغوي، لا بالمعنى السياسي. فهل لك أن تشرح، فإنّي لم أفهم...

سعيد يسترسل في حديثة لا ينوي على شيء.

أي أنّ الشعب بعدده كما هو، أي بطلابه، ومثقفيه وفلاحيه وتجاره، وعماله وأطبائه، أي أن الشعب الجزائري برجاله ونسائه، وحتى بعض أطفاله كل أطفاله، هو الذي قام بالثورة، وهو الذي أمدها بما تحتاج إليه، ولن يبرح فاعلا ذلك حتى يتحقق النصر، ولا علينا أن يطول الزمن أو يقصر..."[6]

إن الثورة الجزائرية قامت بها فئات تملك كفاءات عالية من التخطيط والقنال وأن هذه الثورة أصبحت هي لغة التخاطب الوحيد التي يفهمه العدو، بعد أن فشل النقاش والحوار في حل معضلة الاستقلال المعقدة.

استمد سعيد قوته من آلام الشعب وبؤسه. إنه الفعل الإيجابي الذي يصب في تيار الرفض والمقاومة والثورة، التي هي: "تغيير شامل إلى ما هو أفضل ورفض للوجود الأجنبي والواقع الذي فرضه، وثورتنا الكبرى ثورة أصلية وحقيقية لأنها أدت وتؤدي إلى تغيير يمس مختلف الجوانب من حياتنا الاجتماعية."[7]

## III موقف المناضل من الصوت المختلف:

أبرز المؤلف صوت سعيد في عدة مواقف ليمثل المجتمع الجزائري والأنموذج الإنساني، منح الرواية بذلك عمقا معنويا وأدبيا، إنه صوت رافض، ثائر، واع، مستعد دائما لرفع التحدي في وجه المستعمر الفرنسي. يملك صورا ذهنية مقنعة عما يجب أن يكون عليه المناضل، ما جعله أكثر إصرارا. إن سعيد في ثورته هذه يصارع الأحداث التي تدفعه إلى قمة التأزم إزاء معاناته من حالة الاستلاب التي يعيشها الجزائري، رافضا قمعيتها وزيفها على المستوى الوعي عنده. لقد حرص المؤلف على إظهـار صورة إيجابيـة لهذا الصوت. جاء صوتا واقعيا ثوريا، تحدى أعداءه فقـام بعمليات عسكريـة ناجحـة بفضل حكمتـه وقدرته على التأثير في الناس وذكائـه وفطنته وطموحه الكبير نحو الحريـة: يواصل الروائي قائـلا: "وإذن، فقد أراد سعيد الرقص، وأراد الله القتل. وإذن فقد تهيأت له الفرصة، فماذا ينتظر؟ لا شيء.

سعيد يخرج الآن يده اليمني من جيب معطفه الخفيف، وفيها شيء أشبه ما يكون برمانه، ولكن وزنه أثقل منها، وكان في أعلى هذا الشيء حلقة ليمسك بها حين الحاجة وقد غرس فيه مسمار، إذا سل، صعقت الصواعق، ونزل الجزاء بالظالمين، والعقاب بالمرتزقين.

ها هو سعيد يرسل المسار من أعلى القنبلة بكل خفة وحذر، ثم يضغط عليها حتى لا تنفجر، وحتى يكون في مأمن من شرها قبل إلقائها...

ولكن ماذا ينتظر؟...فما من أحد من المرتزقة إلا وهو سكران أو في حكم السكران... فليلق القنبلة إذن، والله أكبر.

وقد فعل...

فزع سعيد بعض الفزع من هول صوت الانفجار المدوي في جنيات المدينة كلها ومن هول صراخ السكاري، الذي انبعث في الفضاء البعيد... ولكنه، مع ذلك انحدر إلى سيدي الهواري عن طريق الدرج التي تربط بين شارع الحدائق وساحة فوش من أعلى وحي سيدي الهواري من أسفل..."[8]

قدم المؤلف صوت سعيد على أنه وجه ثوري لا يعرف الضعف ولا يستسلم للقهر وأنموذجا إيجابيا يقف القارئ أمامه بانبهار لذلك جاءت شخصية سعيد: "شخصية متواصلة مع تاريخها عاملة على إحيائه لكي تتمكن من تحصين نفسها ومواجهة الأساليب

القمعية التي سلطها عليها الآخر، وبذلك تظهر تمسكها بهويتها وحضارتها ومواجهة حضارة الآخر."[9]

أضفى هذا الصوت على الرواية قيمة جمالية، فالقيمة الجمالية لأي نص سردي تبرز من إتقان السارد لأصواته ومنح حرية التعبير عن رؤاها، ولا لا يفرض عليها تحديدات مسبقة: "كأنه بذلك يشعر بوعي الآخرين إلى جانب وعيه وهو مشابه له في كونه مفتوحا وغير محدد "[10] وبذلك يتمكن من أن يوزع وينثر صوته خلف أصوات الشخصيات الروائية جميعا.

والواقع أن مرتاض تمكن من رسم هذا الصوت بأبعاده النفسية والإيديولوجية ليكون شاهدا على المعاناة الطويلة للجزائريين وما منوا به من القسوة والجوع والظلم. فسعيد والمعاناة حالتان متوحدتان، بحثا عن الحرية إلى أن لاحقته قذائف الاستعمار ليبرز الصوت بهذا الموت. فالصمود لا يؤول في النهاية إلاّ إلى الاستشهاد يواصل السارد قائلا:

"لم يكن سعيد يكاد يسمع في هذه اللحظة، أو يكاد يعرف شيئا غير هذا النور الكريم الذي يسري في قلوب بعض الناس فيضربون أروع الأمثلة في التضحية والبطولة العالية. إن هذا النور لم يكن سعيد نفسه يميزه. لم يكن يدري بوضوح مصدر هذا النور ولا كنهه ولا مصيره. ولكن كان سعيد يشعر به في كل حال. ويستطيع سعيد أن يؤكد مع ذلك أن هذا النور كان مصحوبا بصوت قدسي شفاف، يسمعه ولا يرى صاحبه ويفهمه ولا يميز مصدره، أما هذا الصوت القدسي الشفاف، فقد كان صوت الجزائر الجريح، وهي تنادي في أنها المعذبة المثقلة بالأغلال - قد أدرك سعيد ذلك آخر الأمر- وهي تناديه:

سعيد أيها الابن البار؟

ويجيب سعيد بلغة القلوب:

ولبيك أيتها الأم الحنون!

وإن سعيد ليرمي من المرتزقة، ولكن الرصاص قد نفذ من رشاشته، وقد قتل منهم خلقا كثيرا، من حيث أنه جرح جراحات مختلفة، لم تك مميتة. إذن فقد نفذت ذخيرة رشاشته الفتاكة. فليدخل يده الآن في جانب من معطفه، وقد فعل. وها هو الآن يخرجها بسرعة مذهلة، ثم يرمي العبيد بقنبلة تفجرت على أشلائهم. إن سعيد يريد أن يقتل كل عبيد أوروبا الذين جاءوا ليقتلوا الشعب الجزائري ويعذبوه...إنه لو استطاع لقتلهم جميعا" [11]

ينتمي سعيد إلى طبقة تعاني من قهر الاحتلال، مثله مثل بقية الشباب في المجتمع الجزائري الذين وجدوا أنفسهم في هذه الظروف من غير أن يكون لهم في ذلك خيار ومع ذلك يتخذ صوت سعيد بعدا أنموذجيا يتصف بالجرأة والشجاعة، ينشد الحرية عبر الحركة المستمرة والنضال مع أقرانه، لأنه يدرك أن الإرادة الإنسانية هي التي تحقق الآمال، وأن: "العمل الثوري هو عمل واع منظم ليس بعمل عشوائي، والثورة تتحد بالمضمون. وبصفتها التي تتمثل في الشعبية والاستمرارية التي تحقق أهداف أفراد الشعب بصرف النظر عن الصفات التي تلحق الثورة من حيث أنها ثورة مسلحة"[12]. ثم إن الثورة: "لا بد أن تكون من فعل المجتمع لأنها حركة تاريخية والتاريخ لا يصنعه الأفراد بل يصنعه المجتمع." [13]

## IV المناضل/ صوت الروح الثورية (الوعي، الحضور، الدفاع):

تقوم رواية "نارونور" على صراع بين الجزائري والفرنسي، على صوتين اثنين وهما الحد الأدنى للكينونة على رأي باختين 11. غير أن هذا الصراع يقدمه السياق بالتركيز على صوت سعيد، حيث أضفى عليه، صفات بطولية اجتماعية ونفسية. يعرف طريقه وهدفه، ويدافع عن الحق الجزائري المسلوب. وبغض النظر عن قوى الاحتلال التي تعارضه وتحاصره، لم يكن سلبيا ولا انهزاميا ولا هامشيا.

إنّه صوت إيجابي في مواقفه وفي رؤاه، وحتى في إقناعه لذويه، يرفض الركود ويقاوم العجز ويعبر عن الصلة بين الذات والانتماء إلى الجماعة بالوعي والحضور والدفاع. خاض هذا الصراع لأنه رفض الاستلاب والاستغلال، فكان له على مستوى النص حضور قوي، ووعي متجذر، هذا الوعي جاء لأنّ مرتاض قادر على استيعاب الظاهرة الاجتماعية في شموليتها، فاستطاع أن يتحرر من أسرار رؤيته الإيديولوجية: "فتحدث بنزاهة فكرية وعاطفية عن الحقيقة التاريخية، ذلك أنه كلما حاول المؤلف التجرد من محدداته الاجتماعية الخاصة أمكنة أن يرى الواقع الاجتماعي في أبعاده الكاملة."[14]

تأثر سعيد بظروف مجتمعه، تحكمه طبيعته الغريزية الموروثة، سما من مرتبة الإنسان العادي إلى مرتبة المناضل الثوري. حمل راية الجماعة وانصهر في بوتقتها، إذ إن درجة حضور الصوت تقوم على تلبية حاجة الأصوات وإلى إبراز تجربتها.

أكد مرتاض من خلال العمليات النضالية، التي قام بها سعيد وحدة الكفاح الجزائري الذي لا يقبل التجزئة. فسعيد كشاب جزائري ينتصر على قوى التردد والخوف. ورواية (نار ونور) عبرت في طياتها عن هذا الرمز القوي بتصعيد الأحداث وتكثيفها وحشد كثير من

الإمكانات الفنية. ويبدو أن رؤية مرتاض الفنية والفكرية تتضافر في صنعها أكثر من رؤية: أولها: رؤية سعيد الذي يتخذ موقفا فكريا معينا من الأحداث والواقع، وثانيها الواقع السياسي الذي يقوم بالتعبير الحاد عن فلسفة فرنسا ونظامها: يقول الروائي:

"ويمضي سعيد متسللا كالأفعى الحذرة، من دار إلى دار، ومن شارع إلى شارع يهيئ الشباب من الطلاب والعمال ويهيئ الكهول من التجار والصناع، إلى التجمع وقت المساء، وإلى التسلح بالإيمان والثبات أثناء الزحف نحو ساحة فوش لمواجهة المظلين ومن معهم من المرتزقة. وقد كانت الحماسة الوطنية بلغت من أهل الحي مبلغا رائعا، وقد أخذت الحفيظة والحمية من قلوبهم مأخذا عميقا. فكنت تراهم، يستبطئون هذا التجمع ويحبذون المسارعة إليه دون تأخير أو انتظار.

حرب ضروس قد سحقتهم، وظلم مبرح قد أمضهم، وقلق شديد قد خيم على حياتهم من جميع أقطارها، كأنه هذا الشيطان الماكر الذي يلازم الإنسان ابتغاء أشقائه وإضلاله. ماذا ينتظرون؟ ماذا ينتظرون وقد برح الخفاء فظهر الحق، وأشرقت الشمس حتى أنارت ما حولهم من أرض وأضاءت ما يجاورهم من مكان. لم يعد هناك سبيل إلى الشك. ولم يعد هناك غناء في التردد أو التواكل أو الخلاف في أن الثورة شيء واحد لا شيئان. فإما تكتل وتضامن، وإذن فهي الحرية. وإما تخاذل وتواكل، وإذن فهو الاستعباد والظلم. وليس أقبح على الأرض منهما...

كانت بعض هذه الخواطر تضطرب في خلد سعيد وهو ماض في شوارع هذا الحي، كأنه العمود من النور الذي ينطلق في الفراغ الهائل فيحيل ظلامه إلى ضياء وهاج."[15]

إنّ سعيد على الرغم من صغر سنه: "قد تخلص من الخوف من الآخر فهو يتميز عن باقي الأصوات الأخرى بصلابته وتحديه ومقاومته للآخر لأنّه واع بدوره النضالي لامتلاكه أركان الشخصية الوطنية ومقوماتها، مما جعله يعمل دائما على تحطيم ادعاءات العدو وتفنيد مزاعمه، وأنّ كل ما يقوله هو كذب ونفاق ومخادعة للأنا الوطني من أجل تركيعه والسيطرة عليه."[16]

يحمل سعيد وعيا راسخا بحقيقة الظلم الذي يعانيه الجزائريون. وصوته في الرواية قوي وحيوي. وقد صور الروائي منابع قوته من قوة القضية الجزائرية وشرعيتها واستطاع أن يستنبطن مشاعره ويجوس في أعماقه. ونلاحظ من خلال تيار الوعي كيف تشكلت علاقة من نوع خاص نحو الوطن والحرية في حواسيه ومشاعره، بحيث صارت قضية الحرية

العامة هي قضية سعيد الخاصة ومحور حياته. وبهذا المزج الإيجابي بين القضية العامة والحياة الخاصة للصوت، ترتقي الرواية إلى أعلى مراتب الفن الروائي لأن فهم: "المضمون الروائي في الأعمال الفنية لا ينحصر في التقاط بعض جوانبها التي تعكس الواقع الاجتماعي وإنّما يتطلب امتلاك قدرة خاصة على تحليل بنياتها من أجل التوصل إلى رؤية المبدع الخاصة."[17]

أثرت الظروف المحيطة في إبراز صوت سعيد وتكوين سلوكه وتحديد أبعاده الاجتماعية وتجسيد ملامحه. والروائي بدوره لم يتردد في إدانة هذه الظروف المحيطة بسعيد، فقد قدم رؤية سياسية هادفة إلى تغيير القيم الإنسانية، هذا هو الوجه الإيجابي للأدب الذي: "ينتقد الواقع الكائن والاحتجاج على ما يجري فيه، ويتلبس بعدا إنسانيا ويبدو كأنه الحارس الأمين على القيم البشرية في كل مكان."[18]

ركز مرتاض على الروح الثورية في صوت سعيد حين ساوى بين عشقه للوطن والحرية، وبين عشقه لفاطمة، يقول مرتاض: "وقد بدأ سعيد يستعرض فاطمة أمامه ويتأملها. فقد كانت رشيقة القامة سمراء، خفيفة الروح، حلوة الظل. وقد كانت مثار فتنة لكل من رآها، أو لكل من تحدث إليها من قريب أو من بعيد...وكانت آية في كل شيء...

ولكن سعيدا على جمال فاطمة، وحلاوة فاطمة، وعلى حبه لفاطمة، ظل بعيدا عن التفكير في الزواج بها، إذ كان يعتبر نفسه جنديا من جنود ثورة التحرير، في معركة لا يعرف متى منتهاها. وأنى للجندي مثله، أن يتحكم في مصيره أو يتصرف في حياته لحرية تامة؟..."[19]

اجتمعت في شخصية هذا الصوت معايير الشجاعة ورقة الشعور، حتى صار يشكل في الضمير الشعبي القدر الحتمي لجماهير سيدي الهواري. هذا ما جعل أحداث (نارونور) تصور ملحمة سكان هذا الحي، الذين كان ليلهم رعبا ونضالا ونهارهم ضياعا واحتقارا إنّ لغة سعيد تشتمل على كثير من الكلمات التراثية أو المترادفات والتي يكون القصد من استعمالها إبطال الفكرة القائلة إن المستعمر قد قضى على العربية في عقر دارها، كما قد يكون سببها تشبع الكاتب بتراثه العربي الإسلامي. فصار بذلك صوت سعيد الثوري ذا بناء فني لا يمكن تجاهله، لتوافره على المميزات الفنية.

اعتمد هذا الخطاب الروائي (نار ونور) على زمن الثورة التحريرية، كما اعتمد على أصوات عديدة تساند سعيدا، وكأنه أراد بذلك، وهو يمحو معالم الشخصية الرئيسة أن

يؤكد أن هذه الثورة لم تكن ثورة شخص أو فرد بل كانت ثورة أمة وثورة شعب بأكمله إن الثورة تنسب إلى الشعب وليس إلى فرد معين.

حرص مرتاض على تقديم هذا الصوت بهذه الصيغة داخل البناء الروائي حتى يتسنى له وصف المرحلة التي عاشها المجتمع الجزائري، وعبر عن رفضه بأصوات متعددة تمثل أنوارا تنير هذا البلد وتعمل على أن تشرق شمس الحرية فيه. وقد مكن هذا التوظيف للرواية من أن تسمو إلى مستوى إنساني وأن تجمع بين الخاص والعام فتنزع نحو الشمولي والإنساني.

## الخاتمـــة:

تلتقي في الرواية كثير من الأصوات المتباينة، فأبطال الرواية ليسوا مجرد موضوعات لكلمة المؤلف إنّما يمتلكون كلماتهم الخاصة المفعمة بالقيمة والدلالة، لأنّ تنوع الشخصيات والمتكلمين في الرواية يفضيان إلى خلق كثافة في تعدد الرؤى تجاه العالم ما يجعل هذه الشخصيات تتمتع بحرية الاختلاف والتعبير دون هيمنة الكاتب.

عرض عبد المالك مرتاض في رواية "نار ونور" للحقيقة التاريخية من منظورات ورؤى متعددة ومختلفة، مما أعطى لها طابعها الشمولي في تصوير الواقع الإيديولوجي والثقافي، واحتوت أنماط حكي روايته على صراع وتعارض داخلي بين أصوات متناقضة، ذلك أن تعدد الأصوات، إنما يعني أيضا تعدد أشكال الوعي داخل النص الروائي.

عبّر المناضل عن الصلة بين الذات والانتماء إلى الجماعة بالوعي والحضور والدفاع. خاض هذا الصراع لأنه رفض الاستلاب والاستغلال، فكان له على مستوى النص حضور قوي، ووعي متجذر، هذا الوعي جاء لأنّ الكاتب قادر على استيعاب الظاهرة الاجتماعية في شموليتها، فاستطاع أن يتحرر من أسرار رؤيته الإيديولوجية، فتحدث بنزاهة فكرية وعاطفية عن الحقيقة التاريخية، ذلك أنه كلما حاول المؤلف التجرد من محدداته الاجتماعية الخاصة أمكنة أن يرى الواقع الاجتماعي في أبعاده الكاملة.

لقد كشف صوت المناضل مستواه الثقافي والفكري والإيديولوجي ورؤيته المتحررة، وحضوره بأبعاده، ودلالاته، في الرؤية والموقف والاتجاه والسلوك والقرار في بناء ذاته في إطار من الحرية الداخلية، كما بين رؤيته ومواقفه وحركته في إطار من التحرر والاستقلالية.

## المراجع المستعملة:


01. م.باختين ميخائيل ، **الخطاب الروائي**، تر محمد برادة دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع القاهرة،.1987
02. بوداود وذناني، **(الوعي، الهوية، الآخر)**، مقاربة في رواية نارونور لعبد مالك مرتاض، مقالة في مجلة الباحث، جامعة عمار ثليجي، ع05الأغواط .2010
03. خليفة جنيدي، **حوار حول الثورة**، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 1986، ص5 .
04. الرفيق عبد الوهاب، **في السرد**، دار محمد الحامي، ط1، تونس .1998
05. مرتاض عبد المالك، **رواية نارونور**، دار الهلال القاهرة.
06. لحمداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985.


## الهوامش:

[1] ميخائل باختين الخطاب الروائي ص15

[2] ميخائيل باختين شعرية دوستيوفسكي ص34

[3] جنيدي خليفة، حوار حول الثورة، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، 1986، ص54.

[4] عبد الوهاب الرفيق، **في السرد**، دار محمد الحامي، ط1، تونس، 1998، ص 129.

[5] جنيدي خليفة، حوار حول الثورة، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1986، ص54.

[6] عبد المالك مرتاض، **رواية نارونور**، دار الهلال، القاهرة، ص 24_25.

[7] جنيدي خليفة، **حوار حول الثورة**، ص33.

[8] نارونور، ص36_37.

[9] وذناني بوداود، **(الوعي، الهوية، الأخر)**، مقاربة في رواية نارونور لعبد المالك مرتاض، مقالة في مجلة الباحث،
جامعة عمار ثليجي، الأغواط، 2010، ص 347.

[10] نارونور، ص 114_115.[10]

11 شعرية دوستيوفسكي ص366

[12] جنيدي خلية، **حوار حول الثورة**، ص47.

[13] المرجع نفسه، ص50.

[14] حميد لحميداني، **الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص 247، 248.

[15] نارونور، ص80_81.

[16] وذناني بوداود، (الوعي.الهوية. الاخر)، مقاربة في رواية نارونور لعبد المالك مرتاض، ص351.

[17] حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع، ص10.

[18] حميد لحميداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع، ص18.

19 نارونور، ص48.